بيسوس يموت على شجرتين !

قصة بقلم يوسف احمد المحمود

ـ آن ان تبدل « تذكرة الهوية » .. هذا الشهر تنتهي السنوات العشر !

وكانت تضع في الحسبان ان لا يرد مباشرة فاعتادت ان لا ترفع رأسها مع لسانها اذا ما كانت تزاول عملا لا بد من وجود الرأس فوقه . ولكنها هذه المرة ، وقد انقضت المدة القانونية على رده ، عادت تقول :

ـ سمعت بماذا ذكرتك ؟

وكذلك لحق القول الجديد بأخيه ، فاقتربت .. وضعت كفها على صفحة الكتاب ، وقالت مبتسمة لما ظنته مداعبة جريئة ، اذ ان حجب الكتاب عن عينيه لا يقل اثارة له عن وقوع ذبابة على وجهه :

ـ امامنا سفر .. بدل تذكرة الهوية . هذا الكتاب لا تعاقب عليه اذا ما تأخرت قراءته !

فأخذ كفها . أمسك بها تحت ابطه . رفع فيها بصره كالجمل ، وقد حيل بينه وبين العلف ولما يقض منه وطره ، وقال :

ـ نعم ؟

ومد ما بعد العين حتى صارت « نعم » طائرا ..

ـ أنعم الله عليك بالطاعة ...

وخف يقاطعها :

ـ وبالصبر الجميل ، أيضا !

ـ واحدة واحدة . نحن في مرحلة نقشف .

ـ تقضى حاجة المرأة ولا تقضى حاجة الرجل !

ـ الآن ، دعنا في الارض ..

ـ نعم ؟

ـ فلنا بدل تذكرة الهوية قبل ان تذهب الثمالة الباقية من السنوات العشر .

ضغط كفها المعروقة كأضلاعه حتى احس خشونتها في طحاله ، ثم رد رأسه الى الوراء كأنه على كرسي حلاق ، وقد صار في مرحلة تقليع شعر الخدين والاذنين وطرفي الجبين بالخيط ، وتمتم بلهجة خارجة عن ذلك المناخ :

ـ أو قد أمضينا عشر سنوات معا ؟

ـ ولماذا لا تعد سنوات التعارف والحب والخطبة ؟

ـ ما أطيب البصل مع العسل .. ولكن علماء النبات لا يحسبون فترة « الانتاش » من عمر الفول !

ـ قبل ان يأخذك شيء آخر ، قلنا بدل تذكرة الهوية . ستزور حماتك قبل ان تلتحق بعملك .

نقل كفها الى كماشة اخرى . جعلها بين ذقنه ونحره . ابتسم ابتسامة ارتفع لها جانبا حنكيه حتى انظمرت عيناه ، كما هي حاله عندما يبتسم بسخاء ، وقال :

ـ الناس يطلقون على الزوجة اسم « وزارة الداخلية » . وكنت انا ـ عفوا ، الحديث الآن ودي ...

ـ أعرف ، أعرف .. أنت تخالف الناس وتطلق عليّ اسم « وزارة المستعمرات » ..

ـ اما الآن فقد اثبت ان ما اطلقه الناس هو الصحيح . ألححت عليّ بتبديل الهوية أول مرة قبل ان تستنفد عمرها ، لاني كنت فيها عازبا . ثم صار لنا ، بحمد الله ، دفتر عائلة . فما شأنك بهذه الهوية ؟

ـ أرأيت كم غير الزواج مني ، فلم أشعر بشعر ذقنك على كفي ؟

سحبت الكف . أخذت تقلبها أمام عينيه ، وهي مسترسلة بالقول :

ـ هذه هي الكف التي كانت لي قبل الزواج ؟ كم يمضني الاسى عندما اراك تقلم أظافر يديك . أنا ما تعودت ان اشكو لك شيئا . هذا واجبي . انني منذ صرت عندك لم يقلم لي ظفر يد الا بالغسيل وخردلة البقدونس والبصل وما ...

ـ لهذا ، اذن ، اجد دسما لما آكل . ارجو ان لا تستغني عن قص شعر رأسك !

وأطلت اشعاعة في وجهها المعتم كسقف التنور ، وهي تقول :

ـ اليد جمالها بالاصابع . ولا يجمل الاصابع الا الاظافر . ربنا لا يخلق الا الجميل . انظر كيف تقاصرت الاظفار ، فحفرت رؤوس الاصابع كقرون الماعز الهزيلة . بذمتك هذه هي انا ؟ هذه هي اليد التي كانت تتأذى من لمس ذقنك حتى اثر الحلاقة .. اسأل الله تلك الايام ! يا ثابت !

وأمال ثابت عبد الحق وجهه كهر يسند فكيه الى الارض ، وهو يسحق عظما صلبا ، وقال :

ـ كفك تتأذى من شعر ذقني ، اما صفحتا فخذيك ...

ـ سبحان الله ، يا رجال ! جذور شجرة التفاح مثل التفاحه على الاغصان ؟

وهمت ان تقتعد ركبته ، ولكنه سبقها بالنظر الى الكتاب . ترددت بين ان تتمادى فتبعد اكتتاب من بين يديه ، وبين ان تنصرف متعبة ،الا انها قالت لحسن التخلص :

ـ لا تنس تبديل تذكرة الهوية ..

ظن ثابت أنها اختفت ، ونسيت الموضوع كله ، فاذا بها ترجع .. طرحت تذكرة الهوية امامه ، وعقبت :

ـ سبعة عشر يوما فقط ، ثم لا تصلح للطريق ...

فتح ثابت الهوية . أخمد غصة دون حلقه ، ثم رفع راسه يقول :

ـ كيف ابدلك أنت ؟

ـ أنا !.. هل كتب في قفاي أني لا أصلح للاستعمال الا عشر سنوات ؟

ـ اذا كان تبديل الزوجة ، مهما كانت الاسباب ، لا يسلم من المآخذ ، فكيف أبدل هوية كنت فيها فردا من خمسة وثلاثين مليونا بهوية أعود فيها واحدا من خمسة ملايين فقط !

ـ وماذا يفيد الاحتفاظ بأوراق مالية منعت من التداول ؟

وارتخت شفتا ثابت عبدالحق كنابض فرغ من القوة . وجهه في حال الفرح كسماء كانون المنذرة بالثلج ، فكيف بأن يحزن ؟ قام يجوس في البيت عسى ان يجد مكانا يخلو فيه الى نفسه . غير ان زوجه ، اذا ما كان في البيت ، تظل كالحارس الذي يرافق مقابلة السجناء السياسيين . انه لا يتخلص منها الا بالقراءة . عاد بكتاب آخر . ولكنه لم يقرأ ، بل رسب في السنوات العشر الماضية . ثم آوى منها الى اقل من ثلثها كما يأوي آخر الماء الى الحفر في سرير نهر سيلي .

كانت تلك الفترة آخر مرحلة من دراسته الجامعية التي طالت اكثر من اللازم . لما أخرج « مصدقة » عن اتمام دراسته تلك ، كانت المصدقة تحمل جنسية الدولة الكبيرة التي تحتل ناصيتي قارتين على شاطيء بحر واحد . ثم انجزت الشهادات الجامعية فاذا بشهادته تحمل جنسية طرف واحد ..

لقد تقارب بين العز والهون ...

طرح ثابت تلك الشهادة كما تطرح لقمة تعثرت الاضراس التي تلوكها بشعرة خنزير طرية . كم جعت ، يا ثابت في سبيل هذه الوجبة ، فلما صارت أول لقمة منها في حنكيك ، هكذا وجدتها . كم أزريت على نفسك توالي الرسوب ، فلما أطلت تلك الامنية الكبيرة اذا بك تقفز في الفضاء صائحا : « آمنت بالقدر .. لم يتأخر تخرجي الا لتحمل أعز شهادة لديّ شعار هذه الدولة ! »

عشر سنوات وهو متزوج . ولكنه رفض ان يضع « حجر طابو » في أصبعه . ربما خطر لزوجه أنه يفعل ذلك حتى لا يعترف بالواقع . لقد أنجبت هي بضعة أولاد ، ومع ذلك فانها لا ترتاح لمن يناديها او يخاطبها مكناة باسم ولدها البكر . انها تحب ذلك الولد ، فقد كانت ثلث مدة حملها به في بيت أهلها . ولم تصرح انها ندمت على زواجها من ثابت عبدالحق . ولكنها ، كما قالت ، تستثقل التكنية لانها تشعرها انها أكبر من سنها الحقيقي . وهذه المرة اغتنمت طفس هذه « المناغشة » حسب تسميتها وقالت :

ـ اما سقطت حجتك ؟.

ورد ثابت من فوره :

ـ أبدا ، لا تسقط لي حجة . فما احتج به اما من تجربتي واما من تجربة غيري ، والعلم كله نتيجة تجارب !

ـ اما حكيت لي ان القرى التي تعيش قرب الانهار السيلية يباكر اهلها ضفاف الانهار ، وكل جذع شجرة نبذه السيل ، لا يجدون عليه اثر انسان سابق يأخذونه ؟

ـ تقصدين ان عيون الصبايا « تلعب عليّ اذا لم ير حجر طابو ، او اشارة حجز في اصبعي ؟!

ـ يومها تعللت أنك تقبل ان تأخذ من أمي فتاة بلا مقابل ولا اضافات . قلت لم يكن باستطاعتك تقديم أي مقابل الا رأسا برأس على الطريقة البدائية ، حتى وان اختلف الرأسان . فهناك من يرغب البقرة للحليب والعجول ، وهناك من يرغب الثور للحرث .. اما الآن فقد صار باستطاعتك وضع حجر طابو من حسابك وليس من حساب أمي ، كما تطوعت آنذاك .

ـ هل رأيت ان عدم وجود اشارة حجز قد نقص من عيشنا ؟

ـ ما هذا قصدت ، يا ثابت . البقرة مثلا ، تنبت اسنانا في كل مرحلة من عمرها وتطرح أخرى . والشجرة ، كما يقول علماء النبات ، تترك دوائر في جذعها تدل على مكثها في الارض ، ونحن ان لم نكن من فصيلة النبات ، فاننا ـ بحمد الله ـ من فصيلة الحيوان . فلماذا لا نغير ونبدل ؟

ـ نغير ونبدل ؟ لن أعيش عدوا لنفسي . لا أطيق ذلك. كان الخبز يعوزني ما دمت طالبا . حقا ، انه لم يتح لي ، لحسن الحظ او لسوئه، المرور مفصلا بالمرحلة الاعدادية ولا مجملا بالمرحلة الابتدائية ، ولكني عوضت ذلك في الجامعة . ويوم تزوجتك هل وجدت رغيفا لدي ؟ فكيف اعمد اول ما اعمد ، وقد صار لي دخل ، الى ايجاد شيء لم يضر عدمه بي . بثمنه اشتري كتابا . استطعت ان اتزوج بلا تطويب . انتجت اولادا بلا اشارة حجز . ولكن فكري لا يطول ولا يعمق ، لا ينتج بلا كتب . جذور شخصية الانسان هي أفكاره . وكما تتغذى جذور النبات من الارض تتغذى الافكار من الكتب . والجذور ، يا امرأة لا تتغير ، بل تطول ، وتتكاثر ..

وقامت تقول :

ـ ما الفائدة .. اصرخ في جنبات الوادي « عو عو » ، يجيبك « عو عو » !

ولكن ثابتا صار في واد آخر ..

كان اذا ما رأى شهادة علمية مؤطرة تتصدر غرف الاستقبال في البيوت التي يتاح له زيارتها يعتور امعاءه كثير من الاستهجان . شهادة البكالوريا اكتفى عنها بالمصدقة ، وتركها تففو اما في وزارة المعارف واما في المدرسة حتى لا يزعجها بالتنقل معه . ما الفائدة ان نثقل الجدران بكفاءتنا العلمية ؟ لو ان كل شخص يضع بدلا منها خطا بيانيا لشخصيته !

غير ان زوجه ، وقد نال الشهادة الجامعية في عهدها الزاهر ، عدت ذلك من انجازات ذلك العهد ، فالتقطتها من الارض حيث طرحها ، وقالت :

ـ اطارها عليّ أنا ..

ـ اهديني بثمنه كتابا ..

فارتدت بجذعها الى الوراء وقدمت منطقة الولادة .. وردت :

ـ لن تحول بيني وبين الوفاء بنذري . زوج شقيقتي ، وكان يؤدي خدمة العلم ، كتب اليها ان تقطع الخبز عن طفلتيه ، وتؤطر شهادته بثمنه . وظلت تعرضها في بيت أهلي نصف سنة . وأمي ، ان دخلت وان خرجت ، تردد : « يقبرني صاحب الازازة في الحكوك ! »

ومرت غمامة ثقيلة في سماء كانون، وهو يقول :

ـ خطر لي غير هذا ...

ـ يعني ، أن تجعل صورتي الى جانب صورتك في هذا الاطار ؟

ـ ان أؤطر المصدقة والشهادة منفردتين ، ثم اضعهما جنبا الى جنب . هكذا لارى نفسي ممزقة في دولتين في نتيجة الدراسة التي حسبتها القمة الاولى لشخصيتي ..

ـ انها لمزحة فريدة !

ـ لا . لا مزاح في الامور الكبيرة . كيف أطيق ان ارى قمة شخصيتي ممزقة . الاسكندر المقدوني امر ان يضرب بيسوس بالسياط حتى كاد يقضي عليه . جدع أنفه وصلمت اذناه . هذا ليس بشيء . بيسوس قتل دارا . ولكن الاسكندر اراد ان يكون عقابه كبيرا . هو الاسكندر الكبير . ربطت ذراعا بيسوس في شجرة وشدت ساقاه في أخرى . كانت الشجرتان مضمومتين بالحبال . قطعت الحبال ، فأخذت كل شجرة من جسد بيسوس ما ربط بها . الاسكندر لا يحاسب على ما قتل . بيسوس قتل ملكا واحدا فقط . المصدقة من دولة الخمسة والثلاثين مليونا .. الشهادة من دولة خمسة الملايين ... بقي لبيسوس شيء . بقيت له عيناه يتفرج على نفسه كيف يموت على شجرتين .

ـ ما ذنبنا في ذلك كله ؟

ـ طفلنا الاول ولد ، وهو يضع رجلا في ناصية آسيا ورجلا في

ناصية افريقيا . عندما يعي هذا التمزق ، ماذا سيقول ... ولد كبيرا وكثيرا ، ويدرج صغيرا وقليلا .

ـ ما مسؤوليته هو ، او ما مسؤوليتنا نحن ، في ذلك ؟

ونهض ثابت عبد الحق يجر تمزقه في البيت . ولكن الحارس الذي كان يراقب مقابلة السجناء لاقربائهم صار عليه ان يراقب السجين نفسه .

***

كثيرا ما كانت الزوجة تراقب ثابتا اثر مثل هذه الحالات . ولعلها فكرت ان تنهي الموضوع ذات مرة . كانت ثابت يقرأ في جريدة اسماء اشخاص تسنموا مراتب ضخمة . كان يردد عقب كل اسم بلهجة قاتمة :

ـ العمى ! فلان ، وفلان ؟ تعالي اسمعي . هؤلاء ، هؤلاء .. ما كنت تسمعين اقوالهم ؟

نظرت في الجريدة حيث اشار لها . حكت مكان الاسماء ، ثم قالت:

ـ بصراحة ، يا رجال ، أقول انك مخطيء . الحرباء لتستمر في الحياة تجعل جلدها ، الباطن على الله ما لنا ، بلون الشجر الذي تتسلقه . بلون الارض التي تدب فيها . الثعلب ليصطاد حجلا يتظاهر بالموت ويغمر شفتيه باللعاب سقيا للحجل الظمآن ..

ـ ولكن الانسان ليس بجلده ، يا امرأة .

ـ اذا عرضت عليك عنز فضع يدك في قرونها ..

ـ قف دون رايك في الحياة مجاهدا ...

ـ لم تعد وحدك .. هؤلاء الاطفال ...

ـ لم تكن عاقرا امرأة سقراط .

ـ كليب وائل يحمي مواقع السحاب . لا تورد ابل احد مع ابله ، ولا توقد نار مع ناره . هو الذي ينزل القوم منازلهم ويرحلهم . اذا وضعت لقمة العيش تحت قدم فالآخرون مضطرون للانحناء اليها . ما حيلة الانسان عندما يمسك من معدته ! المثل الذي درجنا عليه : اليد التي لا تستطيع عضها ، قبلها وادع عليها بالكسر .

ـ لا احب لك ان اسمع هذا منك . هذا للاجنبي الذي كان يبطش بلا رحمة .. يبطش للردع ..

ـ قيل لجحا : اقرا لنا حزبا من القرآن . استعاذ بالله من الشيطان الرجيم ، وقرأ : « بسم الله الرحمن الرحيم . آلم ، غلبت الترك .. » قالوا له ، الحنت « غلبت الروم » . فاجاب : لا فرق . كلهم ضد آمالنا ! العود الصلب ، يا رجال ، يكسر . انت موظف . انا وانت وهؤلاء الاطفال وامك معنا ، كلنا ثمننا اربع مئة ليرة بالشهر . مثل على الالسنة : من ياكل خبز السلطان فعليه ان يضرب بسيفه .

خبز السلطان .. سيف السلطان ! ولكن ثابتا يشعر بطعنة السيف قبل ان يشعر بطعمة الخبز . ابوك ، يا ثابت هاجر مرتين الى الارجنتين . اكلت الخبز في بلادك بشغل ابيك في بلاد بعيدة . انت الآن موظف في بلادك . حقك في بلادك كحق بلادك فيك . الارجنتين لم تلزم أباك أن يضرب بسيف سلطانها . قطعة الارض هذه التي يقوم عليها بيتك ثمنها ، ايضا من الارجنتين . وظيفتك لو عمرت فيها عمر نوح لما وفرت منها ثمن قطعة ارض مثل هذه التي اشتراها ابوك من « كشة » الارجنتين . ثابت لا يزال يلفظ ويكتب اسم تلك البلاد كما كان يسمعها من ابيه ، كما دخل خبزها في فيه مع اسمها في سمعه . انا موظف صحيح . ثابت ، لا تجعل معلاقك كبيراً . ولكن هل تعني الوظيفة ان اكون حمارا بعلفه . وجودي كله رهن بلقمة بطني . كالثور يخصى ليكون اقوى في الحرث . كالتيس تدق خصيتاه ليكتنز الشحم واللحم . مسكين انت ، يا ثابت . لا ، انا صاحب حق آكل منه واعطيه في وقت واحد . البلاد ليست مجرد مرج نصيب المرعى فيه ، ويصاب منا اللبن والزبد واللحم والجلود والصوف . الحيوان ياكل لقاء ما فيه . الحيوان قوة جسدية وقيمة جسمية ، يزيد عليه الانسان بميزته الخالدة ، القوة الفكرية ...

ودار في نفس ثابت اكثر من هذا . انه عندما يغضب يتريث في الكلام . كل ما في نفسه يحرص ان يخرج مرة واحدة كطلقة بندقية ، او حسب تعبير أبيه ، « يقب » مثل البارود المشمس . ولكنه الآن مع زوجه . فقال ، والاسف في لهجته :

ـ الآن ارد لك الخطأ الذي رميتني به .. بلادي هي نفسها السلطان ...

ـ قم بدل هويتك . أترك الارضة ترتع بهذه الافكار في كتبك .. اذا هوى جرو كليب وائل في مكان ، فلا يرعى احد ذلك الكلا الا باذنه . واذا عوى على حوض فلا يرده احد الا باذنه ، او من آذن بحرب . لو كان للكلام فائدة لما جعل الورق الذي يكتب عليه غذاء للحشرات . لو كان للافكار قوة لكانت هذه الحشرات اقوى الكائنات اطلاقا ..

ـ ولكنها تتناولها عن طريق الفم .

ـ عن طريق الفم . عن طريق الشرج .. طريق العضل او العرق . شرطي واحد يسوقك ، بلا شهادة سوق ، الى القاضي . ليس القاضي زوجتك التي تتغاضى عن رفضك خاتم زواج تثبت ملكيتها لك . لو شاء الله لجعل الناس أمة واحدة ...

ـ ولكنه فعل .. جعل في العرب من جعلهم امة واحدة .. جعلهم خير أمة اخرجت للناس .

ـ ما يفيدك الاحتفاظ بهذه الهوية . المرأة التي يفطس زوجها ماذا يرد عليها الاحتفاظ بثيابه ،او بصورته ؟ ما اشبهك بملك ينفي فيحمل معه تاجه . لماذا لا نعيش في الواقع . اعتبر تلك الوحدة كحبك الاول الذي كنت تزعم انك تموت اذا ما خبت فيه . وقد خبت بحمد الله ، فهل مت ؟ لقد تزوجتني ، ورزقت اولادا . ونفسك فانك لا تجد نفسا سواها . وما نحن الا من غزية .. رحمة الله على افلاطون .

ـ ولكنني لا أزال احتفظ برسائل ذلك الحب .. لا يزال ينخر عظامي .

ـ تجرأ وأخرج رسالة .. او اذكر اسمها امامي لاريك ..

***

وقف السجين عند تحدي الحارس . لم يكن وقت المعارك الجانبية ملائما . أسماء بعض الاصدقاء اخذت تطوف في رأسه . كانوا يفاخرون بالاحتفاظ بقطع نقدية من ضرب تلك الدولة . ولكن ثابتا لم يرتح للاحتفاظ بالآثار ، كما أنه لا يرتاح ، وهو يستعرضها الآن . لما عجز التخاذل والضعف ان يمسك العرب في الاندلس ، راحوا يتركونها ، وهم يحملون مفاتيح منازلهم . ثم ماتوا في مواطن بعيدة ، وعيونهم تحدق الى تلك المفاتيح معلقة في صدور المنازل الجديدة . ليس بالمفتاح وحده يعود الانسان الى بيت أبعد عنه ، ولا بالمفتاح وحده يصان البيت .

كان اذا ما برز شيء من تلك النقود امام ثابت عبد الحق يغض بصره . لماذا يحتفظ بأمثال هذه النقود ، وطفله الاول يحمل أواسط ذلك العهد التاريخي ، وزوجه تحمل البداية ؟ انه لا ينسى يوم رجع ذلك الصبي من المدرسة ، وقال فرحا :

ـ بابا ، بابا .. غدا عطلة ، عطلة عيد الوحدة .

ثم أدنى الصبي شفتيه حتى التصقتا ببعضهما بعض، وسأل همسا :

ـ « شو » هي هذه الوحدة ، بابا ؟

انها لمرة ثانية تسد الحشرجات حلق ثابت عبد الحق من تساؤل « ولي عهده » .

المرة الاولى .. ولي العهد كان في الثالثة . وكان القضاء على الوحدة قد رمى بهم من العاصمة الى أقصى منطقة في البلاد . كان يخرج به مساء لتبديل جو البيت . وما كاد يتجاوز به باب الدار حتى رجمه بهذا السؤال :

ـ شو هو الله ، بابا ؟

ساعتئذ اصطك فكا ثابت عبد الحق . الله الذي ورث تعريفه من ابيه ، وظل سني مراهقته يصلي له بالحرارة التي يصلي بها أبوه ، وهو في آخر عهده بالدنيا . صام له بالمعدة التي تستوعب ثلاثة ارغفة

مادومة في وجبة واحدة بنفس الرجاء الذي تصوم فيه معدة الاب ، وهي تضيق برغيف واحد في اليوم . ثم رأى ان ثياب ابيه لم تعد تلائمه ، لا ان ضيقت وقصرت ولا ان بقيت كما هي ، فراح يطلب تعريفا آخر ، او يثبت التعريف الموروث ، في الكتب خلال دراسته الجامعية . كتب من الغرب . كتب من الشرق ، وما بينهما . كتب قديمة وحديثة وهمزة الوصل . لقد فرح فرحا لا حد له عندما رسب في السنة الاولى . اطمأن الى أنه سيقرأ كتبا كثيرة جديدة . ان الله في نفسه قضية يومية . ألقى آخر كتاب . ثم استأنى نفسه . علق الايمان الموروث من الاب . وعلق الشك الذي زادته قراءاته وسعة الى اشعار آخر . السؤال الذي لم يستطع هو ان يجيب نفسه عليه ، بماذا يجيب طفله عليه !

هل يقول له : « ربنا الذي اعطى كل شيء خلقه ثم هدى » ؟ أم يقول « بأن الله هو الحق وانه يحيي الموتى وانه على كل شيء قدير » ؟ هل يستعمل برهان ابيه ، فينشد « احدى العجائب خلقة الانسان ، عند العيان له وغير عيان » ، ثم يمد أصابعه فيشرح هذه العجائب في السلاميات والبراجم كيف تتحرك وكيف تنطوي كما كان يشرحها ابوه للذين يحذرهم نار جهنم ؟

وكانا يتقدمان في حقول بلغ بها كرم الربيع وشموخه الغاية . ثابت عبد الحق صامت حيرة وولي العهد منتظر ، حتى لاح لهما فرس لم يصلح فيه بعد عدل الربيع ما أفسده جور الشتاء ، فاذا بالطفل يصيح : « أهذا هو ، بابا ؟ »

لم يضحك ثابت ، ولم يستغفر . لم ينف تحرجا ، ولم يؤكد تشجيعا . فقد عهد طفله لا يقف بالتساؤل عند حد . الاجوبة تولد عنده اسئلة اخرى لا تطاق . أفلاطون في المحاورات ، ولكن تساؤله ليس تساؤل العارف ...

والآن ، هذه المرة ، كيف تعرف له ، يا ثابت الوحدة ؟ لم يعد في الثالثة . انه في السادسة ، أول عهده بالمدرسة !

هل يعود به الى الوراء .. الى مرحلة الثالثة ، والى تلك المنطقة البعيدة بالذات ؟ الى أصيل أحد ايامها ، وقد اشرأبت عيناه فجاة .. امه وأبوه يبكيان فوق الضحك كسماء شباط ، مطر في ناحية وشمس مشرقة في ناحية . الاذاعة بحماس الثار تعلن اعادة الاقليم الى اخيه الاكبر . هل يبكي ويضحك مع الابوين ؟ الاب ما زال يقفز حتى السقف .. الام انطلقت الى الشارع تزغرد امام بيوت الذين كانوا يضايقونها . لحظات لا أكثر ، قصم الظلام ظهر النهار ، فوقع الاب على كرسي ، وارتمت صخرة كبيرة في حلق الام .. والطفل ما يزال يردد بينهما بصره المرتبك . ماذا حدث فاقامهما ؟ وماذا حدث فاقعدهما ؟ ثم انشغلت عيناه اكثر . رجل كاد يسد الباب بجسمه ، استند بيديه على عضادتي الباب ، وقال للام : « مرة ثانية ، خلي عقلك في راسك .. رؤوسنا أثقل من ان نعامل بالمثل . كل واحد له نبي يصلي عليه . هذه المرة ، تهانينا فقط .. » وانصرف الرجل دون ان يرتفع اليه الا بصر الطفل .

ولكن ما أصعب ان تعرف أغلى شيء بالتذكير ، يا ثابت . هل يقول له : في الوحدة خلقت ؟ كم يشق على صغير عندما يعرف انه ولد كبيرا . ألقى ثابت رأسه بين ركبتيه ، وسأل الصبي بفتور :

ـ الم تقل لكم المعلمة شيئا عن هذه الوحدة ، يا بني ؟

ـ لا . بل قالت : ان شاء الله في الوحدة تعيشون . ثم بكت ..

ـ في الصباح ، عندما تنضمون في الصفوف ، الا ترددون شيئا ؟

ـ ٢ ، هذه هي الوحدة ! الصف الرابع والخامس والسادس يرددون ، ولكننا لا نرى شيئا ...

ـ كان ، يا بني ، رجل اسمه اشعب . كان الصبيان مثلكم يلحقون به كلما راوه ، كما تلحقون انتم بالمجانين والنور ...

ـ كان مجنونا ، او نوريا ؟

ـ لا . كان مخلصا لبطنه . حاول ذات مرة ان يبعد عنه الصبيان فلم يفلح . ثم بدا له ان ياتيهم من ناحية ما ياتيه بطنه ، فقال لهم : ان في دار فلان وليمة ، فاذهبوا اليها . ولما هرع الصبيان الى الدار، وقف اشعب قليلا ، ثم لحق بهم ...

فضحك الصبي ، وقال :

ـ العمى ! يصدق كذبه على غيره في نفسه ؟

ـ هذا هو السر الذي يجعل أشعب هو نفسه دائما اشعب ، ويجعل الصغار هم انفسهم دائما الصغار . لقد ولدت ، يا بني في الشهر الثالث من السنة الثانية للوحدة ..

ـ كيف كانت ؟

ـ كنا بها خمسة وثلاثين مليونا .. جيش واحد ، شعب واحد ، علم واحد ، أمل واحد ، الم واحد ، ورئيس واحد . كان النيل يجري في رؤوسنا وصدورنا ، والعاصي يجري من ركبتنا الى اقدامنا ..

ـ النيل !

ـ كانت تطل بنا ، يا بني على بحرين . روعتها انها جمعت شمال افريقيا بغرب آسيا . كانت خطوة واسعة . اعتقدنا اننا ثأرنا بها لكل النكبات التي ما فتئت تعيشها امتنا منذ اجيال بعيدة . أروع ما هزني في الاحتفالات بقيامها . كنت آنذاك خطيبا لامك . انا طالب في الجامعة، وهي في آخر المرحلة الاعدادية ، والطلاب كان لهم قرص في كل عرس . هناك رأينا صبيانا ثلاثة . أكبرهم في مثل سنك الآن . ابوهم يتقدمهم وهم بلباس الميدان : الخوذ في رؤوسهم . السلاح في ايديهم ، والبطانيات وادوات أخرى على ظهورهم . سأل الاب احد معارفه : « ما هؤلاء ! » ، فأجاب باعتزاز لا يتسع له الزمان : « انهم جنود الوحدة ! »

ـ ما دامت هكذا كانت كيف ذهبت ؟

ـ استهلكناها ، يا بني . القطة هذه المرة اكلها اولادها . ألحقنا بحلب البقرة دون ان نطعمها ودون ان نتكفل برعيها . حملناها مشاكلنا الشخصية التافهة .. الحصان الاصيل للحرب والسباق وليس لجر العربات والحمل على الظهر . ولما ناء الجمل بالاثقال لم نسارع الى طرح بعضها عن ظهره ، بل جردنا السكاكين للظفر بلحمه والمباهاة بعفره . العميان ، يا بني ، رزقوا صبيا « فقشوا » خصيتيه . راعنا تحقق حلم الاجيال فقعدنا نحسد انفسنا على تحققه . كل واحد راح يدعي انه هو الذي حقق هذا الحلم ، ولكن واحدا لم يأخذ نفسه بالحفاظ عليه . تصرفنا بها كصفقة . كنا نظن اننا آخر الاجيال التعيسة في هذه الامة ، اننا جيل الثار حقا ، فاذا بنا اذل الاجيال هزيمة . الرجل يكون نصف رجل عندما يحقق حلما كبيرا ، ويكون رجلا كل الرجل عندما يحفظ ما حقق . ننعى على ملوك الطوائف في الاندلس قصر نظرهم ، ونحن عمي . وناخذ على تاجات عصر محاربة الصليبيين حماقاتهم ، ونحن احمق منهم ...

ورأى ثابت وجه الصبي يعتم فبلع لسانه فترة، ثم استرده ليقول:

ـ ستنعم بذكرى الوحدة ، يا بني ، ما دمت طالبا .. غدا عطلة ، وما أتعسنا ان تكون اعيادنا ذكرى مآسينا ..

انصرف الصبي كمسكين ابعد بلا عطاء ، بينما كان الصبيان الثلاثة بلباس الميدان يعبرون الشارع امام عيني ثابت عبد الحق . ترى ، كيف يعيشون ، الآن ، مع ابيهم الذكرى العاشرة للوحدة ! ذاك الاب ، اين ذهب باعتزازه ؟ صفحة من التاريخ قامت في وجه ثابت . سئل أحد زعماء المانيا عقب انكسارها في الحرب العالمية الاولى : « هل ستحارب المانيا مرة ثانية ؟ » فاجاب : « عندما يبلغ مواليد الهزيمة العشرين من العمر تحارب مرة ثانية » .

٢ ، يا ثابت ! ولكن ، في يوم الجمعة والآحاد يكثر الباعة الصغار .. يعرضون بضاعتهم امام المخازن الكبيرة ، بل يعلقونها بابوابها المغلقة . ولا يكتفون بذلك ، وانما يفعلون ما لا يلجا اليه اصحاب المخازن .. انهم ينادون على بضاعتهم .!

***

ـ بدل هويتك .. امامك سفر .

اصحيح ان ثابتا في عداء مع الواقع كما عادت زوجه تقول :

ـ انك غير عملي . صداقة الفد مثل الصداقة بالمراسلة. صداقة الماضي كحب المرأة العجوز . الانسان لا « يطفش » الى الفد الا عندما يعجز عن مصادفة الحاضر .. أعجز الناس من عجز عن اكتساب الاصدقاء ...

ـ غير عملي ؟

ـ أبدا .. لكل موسم زراعة ، يا رجال ، فمن لم يزرع فاتته الغلة . المثل يقول : اذا دخلت مدينة العوران ضع يدك على احدى عينيك . لو فعلت لكنا في غير هذه الحال ، وكنت في غير هذا المكان ...

ـ لن تجعلي مني آدم ثانيا .. لن أكون دودة أعيش من نخر جذع الشجرة التي بها أستظل . هويتي هذه هي أنا ، وأنا هي ، ولن أبدل ذاتي .. لن أكون غير أنا ...

ـ ويوم يسوقك الجلواز الى القاضي ؟

ـ أعيش بها في السجن الى ان اموت بها .. لن امسخ ...

ـ كليب وائل لا يسمح لنا ان نرد الماء ولا ان نرعى الكلأ الا باذنه .. انه ينزل القوم منازلهم ويرحلهم ..

ـ تجوع الحرة ولا تاكل بثدييها ..

ـ حط بالخرج .. لم تعد واحدا ، انت اليوم سبعة اشخاص ...

صخرة كبيرة سدت الكهف على ثابت عبد الحق .. المدن القديمة كانت تسقط بالحصار . أبوك اشتغل في بلاد بعيدة ، وعاش في بلاده بما اشتغل به هناك حيث كان يقيم بجواز سفر . لم يكن محاصرا . كان يؤدي ضريبة من نوع ما يكسب . وكذلك جاء يؤدي عنه هو نفسه ، عما اكتسب ، ضريبة هنا .. منه وفيه ، الله مبارك فيه ...

ـ معلاقك كبير ، يا ثابت ...

أيتها الصخرة ، لقد سددت باب الكهف ، ولكن الاصوات تنفذ منك ، والافكار تحتدم وراءك .. وجودي تلقاء لقمة بطني . أنا نفسي ضريبة طعامي .. دعنا نمر من امامك ، يا كليب . لماذا لا نحتبي في مجلسك ...

ـ ثابت ، معلاقك كبير ... جرو كليب يعوي على الماء والكلأ ...

ـ بدل هويتك ، امامك سفر ...

بيسوس .. جدع أنفك . صلمت اذناك . ذهبت ذراعاك في شجرة، وساقاك في أخرى . ثابت عبد الحق ذراعاه في افريقيا ، قدماه في آسيا . ولكن عيني بيسوس بقيتا تتفرجان على الذراعين .. على الساقين .. هل كان الهواء يهز الشجرتين ! أين ألقيت اذناك ، يا بيسوس ، أين طرحانفك ؟ انت قتلت ملكا مطاردا .. الاسكندر قتل الملوك ، الصبيان والنساء ، والرجال ...

ـ ثابت ، ما أراك سـ « تفركها » برائحة طيبة .. سبعة اشخاص صرت .. لم تعد وحدك ...

وجودي وشغلي بلقمة بطني ، تعال ، يا صبي تعال ..

وقف الصبي امام أبويه . شفتاه ترتخيان . حتى الرابعة كان يبكي اذا ما رآهما يتشاجران حتى الضرب . حتى السادسة صار يحتج على كل ما يعكر صفو البيت بالاضراب عن الطعام . بعدها صار يقف بين الفريقين ويحجز بينهما ، ثم يمول الحليب الفائر حتى يبرد ويصب فيه « الروبة » . لماذا ينادي ، هل نفد تبغ الاب ؟ ولكن ثابت عبد الحق كان بمسك بتذكرة الهوية ، ويقول:

ـ بني ، الوصية للرجال وليست للنساء .. جدك مات مستوفيا جسمه وفكره ودينه ، وقبل ان يشهد تمزقي . انك الآن ابن تسع ، وانا ابن عشر فقط . ولادتي كانت يوم حصلت على هذه الهوية . أنت مزقت في طفولتك . كنت أظن أن الدهر صار أهلا لان أؤمل عنده حياة ، وان يشتاق فيه الى النسل .. ومع انني جنيت عليك ، تسببت بوجود انسان ليفرض عليه التمزق ، فليس عليّ ان تكون اشبه بزمانك منك بأبيك .. لقد صرت أنا غير أبي . انني ارفض ان تفرض الظروف نفسها علي . هذه هويتي .. أنا فيها واحد من خمسة وثلاثين مليونا . امك تشكو أن الزواج منها غير منها .. حفر رؤوس اصابعها ، وظهر السواد في الحفر كما كانت تظهر لنا الغشاوة على فوهات براكين القمر . أين هذا من ان يغير الانسان نفسه ـ ذاته ! جمال الرجل في فكره ، وكماله بوقوفه عند ذلك الفكر . امك اعتبرت زواجي منها نسيانا لحبي الاول . لا ، ما زلت أحب تلك واعيش مع امك .. تماما كما احمل هوية خمسة وثلاثين مليونا ، واعيش مع خمسة فقط .. لا يحمل الرجل على الحنث بيمينه الا المرأة وكليب وائل . بني ، هذه الهوية ـ هوية : الوطن الواحد ، الشعب الواحد ، الجيش الواحد ، العلم الواحد والرئيس الواحد .. ساحتفظ بها ما حييت . لي عليك ان لا تسلب مني لما أوارى التراب .. ان يحفر ما فيها على شاهدة القبر . فاني احب الخلد لو استطيعه .. وكالخلد عندي ان اموت ولم أذم !

دمشق

يوسف أحمد المحمود

صدر حديثا :

الحركة الوطنية الجزائرية

تاليف

الدكتور ابو القاسم سعد الله

اشمل دراسة عن تاريخ الحركة الوطنية في الجزائر ، تلك الحركة التي انتهت بثورة الجزائر العظيمة وبقيام الجمهورية الجزائرية الديموقراطية والشعبية .

٩ ليرات لبنانية

منشورات دار الآداب ـ بيروت